

الدكتور محمد بن عبد الحي

مدخل لأعمال الكاتبة الشاعرة

خديجة بنت عبد الحي

منشورات خديجة بنت عبد الحي



سدنة الحرف
مجلس الادارة
د. عبد الله السيد



اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين
الرئيس
د. محمد أحظانا

©

جميع حقوق الطبع محفوظة

ISBN : 978-2-37711-058-2

تصادف هذه السنة الذكرى الخامسة والخمسين لميلاد الشاعرة الراحلة خديجة بنت عبد الحيّ رحمها الله. ولعل نشر أعمالها الكاملة بعد رحيلها بستّ عشرة سنة، بشكل يسمح للباحثين والمهتمين بتكوين صورة أكثر دقّة وموضوعيّة عن منجزها الإبداعي والبحثي، أصبح عملاً ضرورياً للمهتمين بمظاهر النهوض في هذا البلد. ومن أبرز هذه المظاهر إسهام المرأة في مجالي الفكر والفن، وهي التي ظلّت في هذه البلاد بعيدة عن مهنة القلم. ولا أحد يماري في الدور الريادي للمرحومة خديجة ولا فيما دشنته جهودها الطليعية بالنسبة إلى هذه المهنة العسيرة المراس التي لم ترتدها المرأة في هذا البلد من قبل إلا نادراً.

لقد أشارت أعمال عديدة ودراسات جامعية منشورة وغير منشورة، إلى دور خديجة الرائد ووصفت عن حق موقعها الطليعي في الأدب النسوي الحديث في

موريتانيا، وعزفت بجزء مهم من منجزها الإبداعي، كما تابع جمهور القراء عدداً من نصوصها، خصوصاً تلك التي نُشرت في الصحافة خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، قبل أن يُجمع بعضها في كتاب، لكن الحاجة ظلت ماسة لتكوين نظرة عامة ومتكاملة عن أعمالها وعن مجموع اهتمامات صاحبة هذه الأعمال كشاعرة وكاتبة وباحثة، كان لها حضور معتبر في المسرح الثقافي الموريتاني خلال العقد الأخيرين من القرن العشرين.

ولئن كان بعض هذه الأعمال قد عرف نوعاً من النشر، فإن ذلك النشر كان محدوداً كما وكيفاً، وذلك ما حدا بالدكتور بدي أبو، وهو من أقرب الناس إليها، أن يصدر هذه الأعمال مجتمعة ومنشورة نشرافنيا، يضعها بين أيدي القراء، وفي متناول المهتمين بالإنتاج الثقافي الموريتاني عامة، والنسوي منه خاصة. وتقدم فيما يلي للقارئ مدخلا مختصراً لقراءة هذه الأعمال المكونة من قسمين:

1- دراستين منهجيتين: تحقيق مخطوط

ودراسته، ودراسة أدبية مستقلة.

2- مدونتين إبداعيتين: مجموعة مقالات،
ومجموعة قصائد.

يضاف إلى هذه الأعمال عمل خامس مشترك، نشر
في جزأين، هو جمع وكتابة مدونة من الحكايات
والخرافات الشعبية المحلية.

القسم الأول:

دراسات أدبيتان:

● أولاهما جمع وتحقيق ودراسة لديوان شعر¹ يتكون من 994 بيتا في 91 نضا (هي مرتبة حسب الأغراض: 6 في المدح النبوي. 5 في مدح أشخاص ومجموعة. 42 في الغزل. 12 في الرثاء. 9 في السياسة. 9 في الإخوانيات. 8 في موضوعات متفرقة)، في سبعة أوزان (مرتبة حسب الأهمية: الطويل، البسيط، الوافر، الخفيف، الرجز، الكامل، السريع)، في ثلاث

1 - خديجة بنت عبد الحي: جمع وتحقيق ديوان عبد الحي بن التاب ط1 مطبعة النور للطباعة والنشر نواكشوط 2016 ط2 طنجة 2017.

قواف (مرتبة حسب الأهمية: المتواتر، المتدارك، المتراكب). أطول النصوص 52 بيتا وأقصرها بيتان اثنان.

حققت الكاتبة هذه المدونة اعتمادا على ثلاث نسخ إحداها بخط الشاعر، وأخرى بخط أحد تلامذته، وثالثة موجودة بدار المخطوطات الوطنية، وهي بخط أشخاص متعددين وغير معروفين. وشرحت الباحثة كل غامض في النصوص الشعرية ضمن هوامش سفلية بلغ عددها 805 هوامش.

وأودعت ملاحظاتها التي استخلصت من قراءة هذه المدونة في دراسة صدرت بها التحقيق.

ابتدأت هذه الدراسة بنبذة مركزة وموجزة عن حياة الشاعر وأعماله، تلتها بوصف أغراض المدونة: محتوى كل غرض ومبنى نصه، وفق الترتيب الوارد أعلاه. تلت ذلك بوصف للأساليب، أوزانا وقوافي وموسيقى حشو، ومعجما لغويا، وبنى صرفية للكلمات، وتراكيب وبنى عدولية، وخلصت من هذه الدراسة، إلى: " أن طبيعة تناول الشاعر من الناحية المعنوية، لمعطيات الواقع المحلي فيه ضرب من الطرافة

لا يخفى" ². وأتبع ذلك بوصف نسخ المخطوط
الثلث المعتمدة، ثم النص المحقق، فالفهارس.
ويمكن أن نبرز ملاحظتين اتسم بهما هذا العمل:
الأولى أنه، وإن كان أعد في سياق الخطوة الأولى في
مجال البحث: شهادة الكفاءة في البحث، فإنه كان وفيما
لمنهجية البحث، لا من حيث الوفاء لمنهج تحقيق
المخطوطات، فحسب، وإنما من حيث دقة المعلومات
والتمكن من أدواتها الأسلوبية التي استخدمت في
مقاربة مدوتها، وسلامة أدائها اللغوي والأسلوبي.
الثانية أنها التزمت بصرامة البحث الأكاديمي والوصف
الموضوعي، رغم أن الشاعر هو والدها، وأن جروح
فقدته لما تندمل بعد يومئذ، وأنها هي ما زالت في بداية
تجربتها.

● ثانيها دراسة تأليفية عن تطور أبنية ومضامين فن
النثر الأدبي الموريتاني ³. أعدت الباحثة هذه الدراسة

2 - الديوان المذكور أعلاه ص 27.

3 - خديجة بنت عبد الحي: تطور فن القصص في
موريتانيا من المقامة إلى الرواية دراسة في الأبنية

لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في الآداب الحديثة من جامعة الجزائر وقدمتها للمناقشة عام 2002 قبيل وفاتها. وتتكون هذه الدراسة من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: حُصص لفن المقامة في الأدب العربي عامة، والموريتاني خاصة، درست فيه الباحثة أربعة نماذج هي على التوالي:

1- المقامة الشتوية لمحنض بابه بن

اعبيد⁴.

2- المقامة السلجمانية لعبد الله العتيق بن

ذي الخلال⁵.

3- المقامة الفخرية لعبد الحي بن

التاب⁶.

والمضامين ط1 مطبعة القرنين للنشر والتوزيع /
نواكشوط 2014.

4 - توفي (1185هـ / 1771م).

5 - توفي (1355هـ / 1931م).

6 - توفي (1405هـ / 1984م).

4- المقامة العبيدية للمختار بن حامد⁷.

الفصل الثاني: احتوى ثلاثة فنون أدبية:

1- فن "القف"⁸ الخاص بالثر

الأدي الموريتاني القديم الناشئ في بيئة
"خليلية"⁹ مغلقة، درست فيه الباحثة
نموذجين هما:

أ- "قف" الحانوت، لكتابه عبد
الحي بن التاب.

ب- "قف" المسؤول، وهو مجهول
الكاتب.

7 - توفي (141هـ/1993م).

8 - نص قصير يحاكي أسلوب مختصر خليل في الفقه،
ويأخذ اسمه (فعل أمر من وقف) من المقطع النصي
الذي يدرسه الطالب في اليوم من المختصر، إذ يقال إن
الأجهوري قسم المختصر إلى 300 نص، يقتصر
الطالب على واحد منها يوميا، ويشار إليه في المتن
بعبارة "قف" أي توقف هنا.

9 - نسبة لنص مختصر خليل المصري في الفقه
المالكي.

2- فن المقالة القصصية، الذي

تتنازعه مرجعية النثر الأدي القديم الذي كان شبه مختزل محليا في مقامات الحريري، ومرجعية النثر الحديث، خاصة المقالة الصحفية، وقد درست منه نموذجا واحدا هو:

- أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، للكاتب محمد فال بن عبد اللطيف¹⁰.

3- فن القصة القصيرة الجديد على

الأدب العربي عامة، والموريتاني خاصة درست منه نموذجا واحدا هو:

- الهوية للكاتب محمد فال بن محمد عبد الرحمن¹¹.

¹⁰ - ولد (1372هـ/1952م).

¹¹ - ولد (1976هـ/1956م).

الفصل الثالث: عن فن الرواية الحديثة في الأدب العربي عامة، والأدب الموريتاني خاصة، درست فيه الباحثة نموذجين، هما:

أ- الأسماء المتغيرة للكاتب أحمد بن القادر¹².

ب- مدينة الرياح للكاتب موسى بن أبو¹³.

إضافة إلى مقدمة البحث وخاتمه وفهارسه. تمثل هذه الدراسة تجربة الكاتبة النقدية وما وصلت إليه خبرتها النظرية والتطبيقية، وهي تنسم بغير قليل من الدقة والاكتمال، والصرامة المنهجية، وسلامة الأداء، ورصانة الأسلوب، وفق ما يستوجبه العمل الأكاديمي الجاد¹⁴.

12 - ولد (1361هـ/1941م) (أول رواية موريتانية منشورة).

13 - ولد (1376هـ/1956م) (آخر رواية موريتانية نشرت حتى ذلك الوقت).

14 هذا التلخيص نشر مقدمة لهذه الدراسة في طبعتها الأولى 2014.

القسم الثاني:

يتكون هذا القسم من عمليين إبداعيين هما:

● نقوش على جدران الحافلة¹⁵: وهو مجموعة مقالات اجتماعية نشرتها الكاتبة سنة 1999 بالعنوان المذكور، وتضم 27 مقالة، ترسم الكاتبة في نقوشها على "جدران" الحافلة المنهكة، صورة بانورامية لجسم المجتمع الموريتاني عند أفول القرن العشرين في شكل أيقونات متفاوتة الحجم، للبرجوازية الصغيرة، للمرأة، للمثقف، للنساء...

الأيقونة المركزية للبرجوازية الصغيرة الناشئة المنبئة من البعدين الزمنيين الماضي والآتي، المستمدة لقيمتها

15 خديجة بنت عبد الحي: نقوش على جدران الحافلة ط1 المطبعة السريعة نواكشوط 1999.

وخبرتها ورؤيتها للحياة وللكون، من الممارسة اليومية في باحة السوق السوداء وصالونات لعب ورق الحظ؛ لذلك فهي (أوليغارشية) ناشئة تتخذ من محاربة القانون والنظم، والترويج للرشوة والاحتيال والتضليل وقيم الاستهلاك والتجارة بالتفوذ والممنوعات والميكافيلية، منهجها ورسالتها في الحياة؛ فتبدو في جسم المجتمع، ورمًا خبيثًا ينخر جسمًا مريضًا يشتد هزاله بقدر ما ينتفخ الورم، وتبدو العاصمة نواكشوط يومئذ، الصورة الكاريكاتورية الأبرز لهذا الجسم، إذ يتوافد عليها الناس من كل حدب وصوب، بحثًا عن مفتاح ضائع للحياة، به يفتحون أبوابها الخفية الضائعة في أزقة ملتوية لا يهتدي فيها إلا من لديه حاسة سادسة، ويبقى من لا يملكها، وهم الغالبيّة السحيقة، مرابطين على بوابات المدينة الثلاث (الجنوبية للقادمين من الجنوب. الشرقية للقادمين من الشرق. الشمالية للقادمين من الشمال). كل ينتظر فرجًا من السماء.

وضمن هذه الصورة الواقعية تركّز الكاتبة الضوء على بعض الأيقونات الأخرى التي تُمثّل بعض عناصر

الجسم المغلوبة على أمرها مما جعل حضورها غيابا،
وفعلها عجزا وقصورا.

فالمتمف يعيش ضائعا عاجزا يتغنى بأوهامه، ويلوك
عباراته، يحرس الغياب وينظر فيه وله، في حركة
سيزيفية بهلوانية، قد نسمع جمعيتها، ولكن لا يرى
لها طحين يكف من تزايد الورم وتقادم التحول.

والمرأة تعيش على هامش الفعل، فالعناصر اللائي
حزين بقسط من التعلم والعمل وبمستوى ما من
وغي، يقفن حائرات إلى هذا الحد أو ذاك، حيال
قضية مجتمعة؛ فالوعي يقتضي تحمّل
المسؤولية. ومسؤولية المرأة جسيمة في العمل والبيت،
فالعمل المهني يتطلب التفرغ له، والانضباط والعمل
المنزلي يتطلب الحضور الدائم: تحمّل أعباء الأمومة
وإدارة المنزل وغيرها، وكلّ مهمة من هذه يعسر على
الشخص الواحد القيام بها وحدها، فكيف بها مجتمعة؟
وهي إلى هذا، مُحاطة برسالة من الأعراف تحدّد لها
المسار الذي عليها أن تسلك راضية وغير راضية،
مقتنعة وغير مقتنعة، وكثيرا ما تجد نفسها عاجزة عن

التوفيق بين ما يُملى عليها، وما تراه الأضواء، تُدفع
رغما عنها إلى أن تلعب دور البطل في مسرحيات
هزلية استعراضية، تخسر فيها ويخسر المجتمع: المواسم
السياسية، الأعياد، وغيرها من مناسبات التبريد
والفساد. ثم ينتشع الغبار "ويذهب أهل الثور
بالأجور" وتعود هي إلى حمارها، لا في العير ولا في
التفير؛ ولذلك، فما زالت المرأة الجاهلة السهلة القياد
والانحراف، هي المرأة الأكثر قبولا من قبل المجتمع. أما
المرأة المتعلمة العاملة، فما زالت صورتها ضبابية في
أعين الكثيرين، جدوى تعلمها و عملها غير مُسلمة،
والكثيرون يعتبرونها عموما متخلفة ويفترضون أن عملها
ناقص، وإذا أظهرت قدرة في العمل أو في الفكر أو
الإبداع، فستكون مُقلقة وموضوعا للتندر والغمز
واللُمز، وهي لهذه المنزلة الدونية، موضوع شفقة، على
الكل أن يسعى إلى تذليل الصعاب أمامها؛ لأنها
كالطفل والمريض، يُفترض أنها عاجزة فكريا وعمليا عن
حلّ مشاكلها بنفسها، بل إنّ بعض زلاتها مُعتَر لئلك.
والجيل الصاعد، جيل المستقبل المُعَوّل عليه في إعادة
التوازن إلى هذا الجسم المُختلّ التوازنات، يتوقف

أمره على التربية والبيئة المواتية. والتربية يتم بالتعليم القائم على مشروع مُحدّد لبناء مجتمع ما؛ فالتعليم هو السلاح الأهم لمواجهة الاختلالات التي تنخر جسم المجتمع، إذ الغالب أنّ مصدر انحراف الفرد هو خلل في العملية التربوية، وما انحراف المجتمع إلا جِماع انحرافات الأفراد، وبقدر ما يتم إصلاح الأفراد يكون إصلاح المجتمع أو التغلّب على تناقضاته.

والتعليم منه أسسٌ توضع في العقدين الأوّلين من عمر الإنسان، من الأسرة للروضة، للمدرسة، للجامعة، ومنه مستمّر من المهد إلى اللحد، في مدرسة الحياة الكبرى عن طريق وسائل التثقيف المختلفة: الصحافة والإعلام ونشر التجارب الموروثة والمقتبسة من الآخرين وانتقاء الصالح من كلّ ذلك.

وكلا التمتطين يتوقّف على الأهداف المرسومة، والمشروع المتصوّر، وعلى العنصر البشريّ القائم على تنفيذه، والوسائل المعدّة له، فلكلّ من المؤسّسات التعليمية التثقيفية مَرُيون يليقون بها، وأدوات تربوية تناسبها، والمرئيّ بحاجة إلى أن يربّي:

وَإِذَا الْمُعَلِّمُ سَاءَ لَخِطَ بِصِيرَةٍ *** جَاءَتْ عَلَى يَدِهِ
الْبَصَائِرُ حَوْلًا

والوسيلة بحاجة إلى الإعداد الصحيح، وأي خلل في
أَيٍّ منها مُخِلٌّ بالوصول إلى الهدف وبناء المجتمع
المتصوّر.

والتعليم القائم سَيِّئِ الإعداد، لا يستطيع أن يُنْجِزَ إلا
جسماً اجتماعياً مريضاً، يُعْجِجُ بالتشرد والانهراف
والجهل بأصول اللبّاقة في التعامل المتحصّر، فإذا لم يَتَمَّ
تلافيه فإنّ الاختلال سيظلّ في تفاقم، وتظلّ
الشروخ تتسع بين طبقات المجتمع، وجنسيه، وأجياله،
وجماعاته، وأفراده، ولهذا لا بدّ من إعداد الجيل إعداداً
سليماً، حتّى تصدق عليه صفة الصعود، وإلا فإنّ صفة
الهبوط ستكون الأكثر انطباقاً عليه؛ فيسقط إلى
القرار ويتعفنّ الجسم ويتحلّل ويمّحي.

هذه الصّورة الواقعيّة الدّقيقة، وَرَدَتْ مَرَاوِغَةً مُوَارِبَةً
في سلسلة من المقالات الاجتماعيّة تكوّن هذا العمل،
فيتناول كلّ منها عنصراً خاصّاً من عناصر جسم المجتمع
بأسلوب تربويّ مُبَسَّط سَلِس، لا تصنّع فيه ولا
تكلف، لكنّ العناصر تتعاقد كلّها، لتكوّن الصّورة

الكَلِيَّة، وتَجَلَّوْهَا فِي ثَوْبٍ جَمِيلٍ، لَا نُحِسُّ بِقُبْحِ مَا فِيهِ
إِلَّا بَعْدَ عَمَلِيَّةِ الاسْتِرْجَاعِ التَّرْكِيبِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي الكَلَّ مِنْ
أَجْزَائِهِ.

وتَضَعُ الكَاتِبَةُ الإِصْبَعُ فِي هَذَا العَمَلِ، عَلَى مَكْمَنِ
الدَّاءِ، وَعَلَى السَّبِيلِ إِلَى الدَّوَاءِ، وَلَكِنَّ الصُّورَةَ الكَلِيَّةَ
لَا تَخْفَى أَنَّ الطَّرِيقَ طَوِيلًا، وَالطَّبِيبَ غَائِبًا، وَالتَّفْوَسَ
الضَّعِيفَةَ كَثِيرَةً¹⁶.

● العَمَلُ الإِبْدَاعِيُّ الثَّانِي هُوَ مَجْمُوعَةُ شَعْرِيَّةٍ¹⁷ تَتَكُونُ
مِنْ (30) نَصًّا خَمْسَةً مِنْهَا مِنْ شَعْرِ التَّفْعِيلَةِ، وَأَرْبَعَةٌ
وَعِشْرُونَ مِنْ شَعْرِ البَيْتِ ذِي الشَّطْرَيْنِ، وَنَصٌّ وَاحِدٌ
مِنْ نَمَطِ الرَّبَاعِيَّاتِ.

الأَوْزَانُ فِي سَبْعَةِ مَجُورٍ هِيَ، حَسَبَ تَوَاتُرِهَا: الرَّمْلُ
(8) نَصُوصٌ، الطَّوِيلُ (5) نَصُوصٌ، وَالخَفِيفُ (5)
نَصُوصٌ، الكَامِلُ وَالوَافِرُ وَالْمُتَقَارِبُ (3) نَصُوصٌ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهَا، السَّرِيعُ نَصَانٌ (2)، البَسِيطُ نَصٌّ

16 - هذه الفقرة هي مختصر لقراءة لهذه المقالات نشرت

مقدمة لها في طبعتها الأولى 1999.

17 - خديجة بنت عبد الحي: المجموعة الشعرية

ط1/مكتبة القرنين للنشر والتوزيع 2014.

واحد(1). خمسة من البحور صافية، وثلاثة ممزوجة (الطويل والخفيف والبسيط)، القافية متنوعة في نصوص التفعيلة ونص الرباعيات، موحدة فيما عدا ذلك.

نصوص البدايات أميل إلى الاحتذاء والمباشرة، والنصوص الأحدث أميل إلى التجديد في التشكيل وفي اللغة: إيقاعا وصورة، وخاصة من حيث كثافة الصورة ورمزيّتها.

أما الموضوعات فتطغى عليها قضايا التحرر الوطني، بنسبة تزيد على الثمانين بالمئة، فنصوص (الأرجوحة. الإبحار. على باب الكهف. ليس عشقا. مرفأ الصمت. نجوى الأصيل. يا نسيمًا. شاطئ البحر.. نغم الشعر. نفحة الإلهام. الحرف الجريح. صوت بابلي)، كلها يطغى عليها النضال من أجل التحرر الوطني، ونصوص (علمي. درب النضال. القبة. قمحية اللون. عاصمتي. عد يا عيد وحدثنا)، كلها يطغى عليها حب الوطن، والاعتزاز به، والتغني به، ونصوص (سكرة الشعر. عارضة الأوراق. نشيد الفتاة. كيف يهدى لك التحرر؟)، كلها تدافع عن تحرر المرأة ومشاركتها في

الحياة النشطة واعتمادها على ذاتها وعلى قدراتها، أما نصوص (زغردة. ربيع الوحدة. نجمة الشعر. فرحة اللقاء)، فتدافع عن قضايا قومية عربية. وهناك نص (هي الأم) ترثي به والدتها رثاء فيه شحنة وفاء عاطفية قوية، ونص آخر قصير (شكرا)، تشكر فيه عوادها أثناء مرضها، وآخر (ربي أدعوك)، تدعو ربها أن يمن عليها بالشفاء من مرضها، ولعلمها آخر ما كتبت. وهناك نص وحيد (الكوسي)، في نقد بعض مسلكيات الشباب المتكاسل.

هذان العملان الإبداعيان يعكسان تطور رؤية الكاتبة الفنية والفكرية والاجتماعية، وسعيها للإسهام في النهوض بالفرد والمجتمع في وطنها، كما يمثلان مستوى وعيها بحركة التاريخ، ومسؤولية الكاتب ووظيفته، ومستوى عمق ثقافتها، واطلاعها على التجارب الفكرية والفنية عامة، والأدبية بصورة خاصة، وطموحها، وتوقها إلى تسجيل اسمها بشرف، في سجل مسيرة الحياة الفكرية والثقافية في بلدها، وكل نصوص المجموعة الشعرية تنضح بهذا الطموح وتعكس جوانب

هامة من سيرة الكاتبة الذاتية، ومن تجاربها واهتماماتها، كما تعكس تطور شاعريتها، وريادتها في عالم القصيدة الموريتانية المؤتثة النسبة، إذ لم تسجل القصيدة الموريتانية الحديثة أو القديمة، اسما نسائيا يعتد به، قبلها وزميلتها المتميزة مباركة بنت البراء أطال الله عمرها.

أضف إلى هذه الأعمال الأربعة عملا خامسا¹⁸ أنجزته الكاتبة بالاشتراك مع فريق عمل يرأسه د موسى ولد أبنو، ويضم إلى جانبها مجموعة من الباحثين، وهو مدونة حكايات شعبية موريتانية، نشرت في مجلدين دونها فريق العمل هذا، بلهجتها الأصلية (العربية الحسانية)، وأرفق كل حكاية بـ"ترجمة" (أو "تفصيح") لها إلى اللغة العربية المعيارية.

18 - موسى ولد أبنو وخديجة بنت عبد الحي ومباركة بنت البراء ومحمدو ولد احطانا ومحمد يعقوب ولد أحمد ومحمدن ولد البراء ومحمد ولد البرناوي وأمنة بنت محمد الأمين/الحكايات والأساطير الشعبية الموريتانية/حكايات الإنسان ج 1 وج 2/ نشر مشترك بين اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية وبين المعهد التربوي الوطني .

نشرت للكاتبة نصوص شعرية مع ترجمة مختصرة في كل من معجم البابطين للشعر العربي الحديث¹⁹، وكتاب الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث²⁰.

تعكس هذه الأعمال مجتمعة مسيرة باحثة تميزت بالجد والمثابرة والالتزام، وهي مسيرة كانت واعدة لو أمهلها القدر أكثر، فقد اختارها الله إلى جواره في السنة ذاتها التي أنهت فيها إعداد الدراسة التي تقدمت بها لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب العربي (2002)، وعمرها لم يتجاوز السابعة والثلاثين.

مثلت الأربع عشرة الأخيرة من حياة الباحثة: من تخرجها في المدرسة العليا لتكوين الأساتذة سنة 1988، إلى وفاتها سنة 2002، الفترة التي نحتت فيها

¹⁹ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري: معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ط1/ 1995.

²⁰ موسى ولد أبينو ومحمد عبد الحي وآخرون: الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث ط1 نواكشوط 1997.

اسمها بقوة في ذاكرة الحياة الثقافية الموريتانية، ابتدأت هذه الفترة بالعمل مُدْرِسَةً في إعدادية السبخة في نواكشوط، لكنها لم تلبث في التدريس سوى سنة واحدة، كُلفت بعدها بمصلحة المكتبات في وزارة الثقافة، أيام تولي القاضي الجليل المرحوم محمد سالم بن عدّود (1930-2009) لهذه الوزارة. وهي الوظيفة التي بقيت فيها إلى وفاتها. ساعدها موقع هذا العمل في توظيف قدراتها المعرفية ودماثة طبعها الخلقية، واهتمامها الأدبية والفكرية والاجتماعية، في الحضور المكثف في الساحة الثقافية الوطنية يومئذ، داخل الدولة وخارجها، إذ كانت حاضرة في أبرز الأنشطة الثقافية والاجتماعية داخل البلد، وفي أنشطة ثقافية واجتماعية عديدة، ساهمت فيها باسم بلدها، في بعض البلدان العربية الأخرى، حيث زارت في هذا السياق المغرب والجزائر عدة مرات، وانتسبت لجامعة الجزائر التي أعدت تحت مظلتها دراستها لنيل الماجستير في الأدب العربي، كما زارت تونس وليبيا ومصر والسودان واليمن والعراق.

وكانت ربما أكثر تجاربها في هذا الإطار دلالة، في مرحلة من مراحل حياتها، مشاركتها المعروفة على متن سفينة ابن خلدون في مسيرة السلام المناهضة للحصار على العراق (ديسمبر 1990 - يناير 1991). نغني طبعاً تلك المسيرة البحرية الصعبة، الطويلة والجسورة، والتي جمعتها - على متن السفينة المحملة بالمواد الغذائية لمساعدة ضحايا الحصار - مع عدد من زميلاتها من مختلف بلدان العالم مسلحات فقط بإبداعهن وإيمانهن. حملتهن سفينة ابن خلدون (التي سمّتها في قصيدتها "الإبحار" بـ"زورق الحلم الأهوج") من الجزائر عبر قناة السويس والبحر الأحمر ثم المحيط الهندي وبحر العرب. وهناك في عرض البحر اعترضت حاملات الطائرات الأمريكية سفينتهن. وخلال أسابيع، واجهت هي والمشاركات الأخريات تلك السلسلة الطويلة من المضايقات التي وصلت أوجها مع اقتحام جنود المارينز للسفينة. وبعد حملة دولية واسعة استطعن مواصلة مسيرتهن. ثم انتقلن جواً من ميناء الفجيرة الإماراتي إلى مطار البصرة في الليلة نفسها (16

يناير 1991) التي انطلقت فيها غارات حرب الخليج الثانية. ونجد لهذه التجربة حضوراً كثيفاً في بعض نصوصها لاسيما طبعاً في قصيدتها "الإبحار" التي كتبها على متن السفينة.

ومن كل ذلك أكتسبت تجربة في الحياة وثقافة معمقة، خدمت بهما بلدها، ما أتاحت لها فسحة الزمن، دون أن يخل ذلك بواجباتها الاجتماعية. وقد ضمنت خلاصة تجربتها في الحياة، في أعمالها التي بقيت تعيش فيها وبها، والباقي من حياة المرء هو ما يودعه كلماته وأعماله، من شحنة الحياة القادرة على أن تحفظ لهذه الكلمات والأعمال بقاءها، وتحفظ له بها حياته، أي استمرار تواصله مع الأحياء وحضوره في وجدانهم، ولو من وراء حجاب وسائط النشر، وعلى هذا الأساس، فلا عبء بعدد سني العمر، أكانت ثلاثين أم مائة، إذ القابل للبقاء في النهاية، هو الكلمات وشحناتها الفكرية والشعورية، التي تصنع المستقبل: "الغد الأبلج" في "المرفاً الآخر"²¹.

وبعد، فتلك صورة بانورامية لأعمال كاتبة وضعها قدرها في موقع الرائد الذي لا يكذب أهله، يقدم لهم صورة واقعهم من خلال رؤية واعية تحمل رسالة هادفة تنطلق من نقد الواقع، ملتزمة بتطويره وتجاوز عقباته، مستشرفة مستقبلا أفضل و" غدا أبلغ"، ينحته أبناء البلد وفرسانه، بالجد والعزم والعمل، لا بالتمني والاستخذاء وهدر الوقت في القيل والقال، واحتساء "الكوسي" لكؤوس الشاي، بل بالمضي قدما نحو الفجر الواعد في الضفة الأخرى المزروعة بورود ذلك الجيل الجديد، من أبناء البلد الذين أرضعوا حليب العزة، وتذوقوا حلاوة الحرية، تقول:

"سأمضي مع السندباد

عسى الفجر يزرع أرجوحتي بالورود

فأتزع كأس الوليد حليبيا وأهديه قطعة سكر

وأعواد حلوى

إلى شاطئ الفجر في المرفأ الآخر"

"سأرحل في الفجر خلف الصدى

صدى صيحة الفارس المنتظر

أيا بخت نصر من أي أفق طلعت

أيا صارخا من فجاج الغد الأبلج"...

ديي 2108/5/24

د. محمد عبد الحي

الطبعة الأولى: ماي 2018
ISBN : 978-2-37711-058-2